



يسن أحياناً كي نفهم البواعث العميقه في سياسة قوه كبيرة من القوي العظمى لقضية ما ان نفحص عن التصورات في تلك القضية بين أبناء جاليتها الثقافية في أنحاء العالم. لأنه إذا وجدنا أن تصورات هذه القوة العظمى قد بقيت سنتين طويلاً بعيداً عن الدولة الأم ففي ذلك ما يشهد بمبلغ عمق رسوخ هذه التصورات في طرق تفكير هذه القوة من القوي العظمى.

لماذا في الحقيقة لا يساعد العالم بشار الأسد على قمع الهبة الشعبية عليه، سأل متصفح إسرائيلي روسي في الفترة الأخيرة. أوليس الحديث عن إنسان مثقف، وعن طبيب اختص في لندن. أوليس واضحًا للعالم أن السوريين لن يحظوا بزعيم أفضل منه؟.

إن هذه التساؤلات التي حظيت بعطف أصحاب الردود تهيء لنا نظراً إلى الخلفية العميقـة لسياسة التأيـيد العـنـيد لـروسـيا لـنـظام الأـسد القـاتـل.

فإن إدارة الروسية وكثيرون في الرأي العام الروسي مثل الإدارة السوفيتية في الماضي يؤمنون حقاً وبلا شك في أن نظاماً كنظام الأسد هو أفضل ما يمكن أن يأملوا به في 'الشرق' العربي عموماً وفي سوريا خاصة، فضلاً عن مصالح جغرافية سياسية مباشرة والالتزام بحلف طويل مع سوريا من فترة الحرب الباردة.

إن الاستكبار الاستشرافي الذي يرى أن 'الشرق' بسبب اجتماع 'الدونية' والوحشية' الراسختين فيه بصورة جوهرية، يحتاج لمصلحته إلى توجيه من جهة حاكمة قوية متشددة، لم يكن وليس هو مميزاً للاتحاد السوفييتي ووريثته الرئيسية. فقد كان هذا الرأي يميز الاستعمار الغربي وما زال يميز دوائر لا يستهان بها في العالم الغربي.

لكن في الحالة السوفياتية الروسية وجدت شروط تصورية مميزة تجعل من الصعب إلى اليوم تحدي هذه الفكرة. لأن التمسك بالاستكبار الاستشرافي على الشرق الأوسط والعالم الثالث يسكن عالم المفاهيم السوفياتي مع القناعة العميقة بأن

الاتحاد السوفياتي هو القوة المعادية للاستعمار الرئيسة في العالم، وبإزاء ذلك، وبهدي من التناقضات بين الخطابة المستنيرة والأداء الظلامي للذين ميزا الامبراطورية السوفياتية، عُرض توجه القمع الاستشراقي، مثل رعاية كوادر مثقفة لتعزيز سلطة العلوين في سوريا، على أنه تأييد للتحرر الوطني المأمول للشعب السوري.

وهكذا ما يزال كثيرون في روسيا ما بعد السوفياتية وجالياتها الثقافية في العالم على يقين بسبب استعمال طويل وعند لمصطلح 'التحرر' لممثل واقع القمع، من أن نظام سوريا ولا سيما حاكمها المثقف مما ذروة أشواق الشعب السوري.

والى ذلك وفي حالة روسيا فإن التصور الذي يقول أن جموع الشعب تحتاج إلى سلطة قوية متشددة لا ينحصر في توجها نحو سوريا بل يسوق صورة تصور الإدارة الروسية لما يناسب الشعب الروسي نفسه. إن هذه الحالات ومؤيديها غير القليلين يرون أن نظام بوتين هو بالضبط ما يريد المواطن الروسي العادي الذي يتمنى توجيهها ملائقا.

والأبناء السيئة هي أن مقدارا كبيرا من هذا التصور لـ'مصلحة الشعب' قد استورد من الفضاء ما بعد السوفياتي إلى إسرائيل في العشرين سنة الأخيرة. أن التساؤلات عن العالم الغربي الذي لا يفهم أن الأسد جيد للسوريين تثور في الخطاب الروسي الإسرائيلي مع التساؤلات المتعلقة بما يُرى فيه انه 'مقدار مبالغ فيه' من حرية الرأي والتسامح في المجتمع الإسرائيلي. ويجوز لنا أن نقول أنه في إسرائيل الكلية مع الاتجاهات المترکزة حول العرق والدين القومي التي تقوى فيها. توجد أيضا تعديلات من إنتاج محلي عن الامتناع عن الطريقة الديمقراطية، لكن لا شك مهما كان من الصعب الاعتراف بذلك في أن الاتجاه إلى إضعاف القيم الديمقراطية الذي طرأ على إسرائيل في العقود الأخيرة يستمد قوته بقدر كبير من التصورات المستوردة من الاتحاد السوفياتي السابق كذلك التي تعطف على مصير الحاكم السوري.

المصدر: القدس العربي

المصادر: